وجهاً لوجه

قصة بقلم محمود الريماوي

خرجت باكرا ولم اكن وحدي ، كان هناك افراد عائلتي وسكان المخيم . في الطريق الشائكة كانت الشمس الحادة الواضحة تفضح زحفنا الهارب ، وكنت اتذكر بيأس حكايا والدي عن سمك يافا ، وبرتقال يافا ، حتى عن سينما « الحمرا » في يافا .. لي من العمر عشرون عاما ، احلق ذقني مرة واحدة في الاسبوع . قال لي والدي انني انحدر من بلدة صغيرة في قضاء حيفا (البعض يقولون لي من قضاء حيفا سابقا) . لست ابتعد عن الموضوع ، انها تتطاير في رأسي. الجرح هذا ؟ اجل هو الذي عمدني . صحيح انا ادخن والعب الورق واغازل البنات ، لكن لا احد يستطيع ان يكسر عيني . هذا العام حصلت على الثانوية (كنت خائفا من مادة العلوم) وكنت اطمح الى الوظيفة والراتب والزواج و .. كنت اتصور اني ساصطدم بصعوبات كثيرة في سبيل الحصول على عمل وكما حصل مع شقيقي يونس .. لكنهم لم يرفضوني وهانذا . عندما صافحت عيني النسر في وجه الملازم اطللت على بلدتي فاصابني ما يشبه الرعشة ، لحظة واقول لكم ، لم ارها بلدتي .. قال لي لا ارتجالية ! اما الصليب الاحمر فقد اعلمني اني غير مرغوب فيه . اشتركت في اكثر من عملية ، انها تتطاير في رأسي ، وفي كل واحدة كنت اشعر اني انهض في وجه جميع القيم السفلى التي تقود هذا العالم (كنت الاول في مادة الانشاء والتعبير). لا ابالغ ابدا اذا قلت لكم بأني كنت اشعر ان قامتي تطول اكثر بعد كل اشتباك . كلامي مشوش ومختلط ببعضه ، من قال لكم اني حكواتي او محاضر ؟! . في هذا الوقت اخر ما يجب ان نلجأ اليه هو الكلام . سأكتب في مذكرتي ان هذا اليوم سلبي لاني انشغلت فيه كثيرا بالكلام. فعلا لغة عقيمة . يجب ان نتقن لغة النار بجانب الانجليزية . انها تتطاير في رأسي . نعم . تريدون ان اذكر لكم عن عملية واحدة ، كيف اختار واحدة من عشيقاتي ؟! . كنا مبلغا وقدره ثلاثة عشر رجلا .. بل اربعة عشر . عدد كبير حقا لكنه ايضا يثمر كثيرا . كنا في مغارة تاريخية مهجورة ، حولنا اشجار التين والزيتون ، والصخور،والصمت فاغرا فاه . اعترف الرفاق انهم جياع . وكان بي ايضا جوع . «هو » لم يستطع ان يحضر لنا طعاما، اما لماذا فلانه لم يستطع . القرية ؟ القرية على بعد كيلومتر واحد (بلدتي اقرب آلي من السلاح الى قلبي)، ولا بد ان نتزود منها . من يذهب ؟ لا لن اتاخر ، زيتون وجبنة وسكر، لدينا شاي وخبز ما يكفينا . خرجت وكنت اتوقع ان اصطدم بالخطر كل لحظة . ولكن الذي كنت اتذكره بمرارة يوم الخروج ، كيف كنت اواجههم بظهري المسافر ، لم يعد وجهي في ظهري .. اعرف ان اسمها « .... » اما المدخل المناسب وما بعده فلا اعرف عنه شيئا . القرية من منطقتي وانا الذي يجب ان اتوجه اليها حتى لو لم اكن خبيرا بمسالكها . لا يهم . زيتون وجبنة وسكر . لا لن اتاخر وقبل منتصف النهار سأحضر . هذا الرجل كأني سبق لي ان رأيته .

ـ يا عم ، اسأل عن دكانة .

كانت في عينيه حسرة مكبوتة ، وغيمة .

ـ ليش دكانة ، بيتنا قريب ، من خير الله وخيرك ..

كانت الدكانة في نهاية الزقاق ، وليس ثمة جلبة حولها . باب خشبي مفتوح على اقصاه ، في المقدمة برميل كاز وكيس بصل ، وكرسيان يجلس على احدهما شاب واضح الحيوية والعافية ، وعلى الاخر تتكوم امرأة ... تطلع الشاب آلي بزاوية عينه بتركيز بالغ،وقال بصوت تضامني يرشح محبة : ـ انت منهم ، الله معك ..

رفض ان يأخذ المقابل فايقنت ان الدنيا بخير . لكن كيف عرف اني واحد منهم . هل ملابسي تفصح عن ذلك ، لا بد انه تمعن النظر في عيني وعرف اني غريب عن القرية . لو رأتني دورية من افرادهم هل تعرفني ؟ . كيس الزيتون والجبنة ابتل كثيرا واخشى ان ينفرط، لا بد ان أسرع . انهم ينتظرونني ، و .. موعد العملية ينتظرني ، آه انها تتطاير في رأسي ! ـ الى بيتنا .

قلت له وكان يشملني بعيون زرقاء حاقدة ـ اين بيتكم ؟

كان هذا اعقد سؤال وجه الي في حياتي . كنت امام امتحان يتعلق عليه مصيري ، وبلدتي في قضاء حيفا لم تنعم بلقاء فارسها . والرفاق ينتظرون ، لو اني اعرف احدا في القرية .. ترى اي بيت اختار ؟ . ـ بيتنا هناك .

ادركت انه غير مصدق فاوجست خيفة ، مشينا معا . عندما اشرت اليه باصبعي لم اكن احدد بيتا بالذات . اي بيت يصلح للاختيار وليس ثمة حل اخر . اعترف لكم اني كنت امشي معه وانا خائف . صحيح ليس بالسلاح وحده ينتصر المحارب .. تماما كما ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . كنت اعزل . وعندما اكون كذلك اشعر اني عاطل عن العمل ، كحملة الثانوية الذين كانوا يتكدسون في مقاهي المخيم .

ـ نعم .. نعم ، هذا هو البيت .

ابتلعت ريقي بصعوبة وقرعت الباب المعدني ، وقف خلفي كالظل الثقيل . نظرت اليه بطرف عيني ، ولم تكن الجدية السابقة على وجهه . لانه وحده ؟ اجل ، هم كذلك دائما ينسولون الامان ممن معهم.

ـ هذه هي الاغراض يا امي .

كانت آلام المفترضة في العقد الرابع على وجه التقريب ، على رأسها منديل اسود وفي وجهها ترقب قلق محزون . نظرت الي بدهشة للوهلة الاولى ، ولكنها عندما لمحته خلفي هشت لي وكأنها تبنتني بدءا من تلك اللحظة : ـ ادخل ، الله يعطيك العافية ..

انسحب الخواجة الى الوراء بعد ان قذفني بنظرة خبيثة لكنها لم تكن عسكرية . شربت كأس الشاي على عجل ، وسألتني عن شقيقها وابنها لانهما معنا ، وكنت اطمئنها وهي لا تكف عن توجيه ضراعة عينيها الى السقف . خرجت بلهفة صوب رفاقي ، لقد تأخرت ساعتين والشمس الان في مرحلة الانزلاق . العملية الان في اوجها ، يا الهي كيف يحصل ذلك . لا بد انهم يقتتلون. قد يكونون اجلوا العملية ما دامت قواهم ليست كما ينبغي . نفس الطريق . انها تتطاير في رأسي . لحظات واصلهم ، سأحدثهم عما حصل معي وعن اعصابي الفولاذية . ما اجمل صوت الرصاص . لم انس شيئا : زيتون وجبنة وسكر . انا مخرب!. بضع خطوات واصل . سينفجر في وجهي احمد ، ولكن ماذا افعل ، لم يكن ذنبي . المغارة من الخارج تبدو كالقبر ، لا صوت ولا نأمة ولا رائحة للرفاق .. الجوع شل قواهم ، ام هم يلتزمون الصمت احتياطا، ام تراهم خرجوا ؟ احمد : ليس ثمة احمد . مصطفى : ليس ثمة مصطفى . نعمان . حسن . صبحي . وكان الصدى يرتد موحشا . اشعلت بحذر عود ثقاب وبالفعل لم يكن هناك احد . وجدت سلاحي في مكانه ، وبقايا قطع الخبز متناثرة بين الحجارة . اصبت بحيرة لا مثيل لها ، ولم ادر ماذا يتوجب علي ان افعل . جلست كي ارتاح قليلا وكنت بحاجة ماسة الى قرار ما يوجه اقدامي . لم يكن البقاء في المغارة قرارا عل كي حال . حملت سلاحي ووقفت واتجهت نحو الباب لاستشرف الطرق حولي . خرجت فاذا بي اقف وجها لوجه مع احد افرادهم .. لم يكن وحده ، وكنت وحدي . أقسم لكم اني لم امت ولم اضع السلاح . لا تسألوني عما حدث بعد ذلك . لماذا تريدون مزيدا من الكلام . ألم أقل لكم ان الكلام هو اخر ما يجب ان نلجأ اليه في هذا الوقت ؟!

محمود الريماوي